

## سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ • الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ • يَحْسَبُ  
أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ • كَلًّا لَّيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا  
الْحُطَمَةُ • نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ • الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ • إِنَّهَا عَلَيْهِم  
مُؤَصَّدَةٌ • فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾

صدق الله العظيم

oboeikandi.com

السورة مكية .

والمشهور في ترتيب نزولها أنها الثانية والثلاثون .

\* \* \*

قيل نزلت في «الأخنس بن شريق» كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله ﷺ .

وقيل نزلت في «الوليد بن المغيرة المخزومي» كان يغتاب المصطفى عليه الصلاة والسلام من ورائه ، ويظعن عليه في وجهه<sup>(١)</sup> .

وقال محمد بن إسحاق في السيرة النبوية : «ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أبي بن خلف» .

وأياً من كان الذي نزلت فيه السورة ، فالنذيرُ عام لكلِّ همزة لمزة . وهذا هو الصواب عند الإمام الطبري .

وقال الزمخشري في (الكشاف) ويجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً ليتناول كلٌّ من باشر ذلك القبيح .

\* \* \*

ويلٌ : كلمة عذابٍ وسخط . ويكثر استعمالها مع هاء الندبة في التفجع عند الكوارث .

وتأولها بعض المفسرين في آية الهمزة ، بأنها «وادي في جهنم يسيل من صديد أهل النار ويقيحهم»<sup>(٢)</sup> .

ونستقرئ مواضع الاستعمال في القرآن الكريم للكلمة ، فنجدها في أربعين موضعاً . منها ثلاث عشرة مرة ، معرفةً بالإضافة ، في موقف التحسر والتفجع والندبة ،  
بآيات :

(القلم ٣١ ، هود ٧٢ ، الفرقان ٢٨ ، الكهف ٤٩ ، الأحقاف ١٨ ، طه ٦١ ، القصص ٨٠ ، الأنبياء ١٤ ،  
٤٦ ، ٩٧ ، يس ٥٢ ، الصافات ٢٠ ، المائدة ٣١) .

(٢ و ١) تفسير الطبري ، ومثله في الكشاف وتفسير الرازي : سورة الهمزة .

وباقى الآيات الأربعين ، فى سياق النذير من الله سبحانه .  
وباستثناء آية الأنبياء : «ولكم الويلُ مما تصفون» مُعَرَّقة بأل ، جاءت «ويل»  
نكرة ، بمثل الأسلوب فى آية الهمة .

والنذيرُ فى كل آياتها من الله سبحانه ، بويل : للكافرين ، والمشركين ،  
والمكذبين ، والظالمين ، والمطففين ، والمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين  
يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، والقاسية قلوبهم ، وكل أفاك  
أنيم ، وكل هُمزة لمزة .

والوعيد فيها بويل : من مشهد يوم عظيم ، ومن النار ، وعذاب أليم ، ومن يوم  
الدين ، ويومهم الذى يوعدون ، والنبيذ فى الحطمة .

وفى هذا الاستقراء ما يكفى إدراكا لما للفظ ويل من رهبة ، وما يثير من خوف  
ورعب ، دون أن نحتاج فيه إلى تأويل بوايدٍ فى جهنم يسيل قيحا ، أحسبه من  
الإسرائيليات التى أدخل فيها اليهود عناصر من وصفهم لجهنم .

\* \* \*

ولم تأت «هُمزة» بهذه الصيغة فى القرآن الكريم إلا هنا ، وإن جاء من مادتها  
صيغتان أخريان :

هَمَّاز : «ولا تُطع كلَّ حَلَّافٍ مهين • هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ • مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ  
مُعْتَدٍ أَنِيمٍ»

(القلم ١١)

وَهَمَزَات : «وقل رب أعوذ بك من هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ» (المؤمنون ٩٧)

\* \* \*

كذلك لم تأت صيغة «لُمزة» فى القرآن كله إلا فى آية الهمة ، وجاء الفعل  
مضارعاً فى ثلاث آيات :

«ولا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ولا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ» (الحجرات ١١)

«ومنهم من يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا منها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا منها

(التوبة ٥٨)

إِذَا هم يَسْخَطُونَ» .

ومعها آية (التوبة ٧٩) في اللمز في الصدقات أيضاً .  
وهذا هو كل ما في القرآن الكريم من مادق الهمز واللمز .

• • •

ولا خلاف ، أعلمه ، بين اللغويين والمفسرين ، في أن مثل صيغة هُمَزَة وَلَمَزَة ، تستعمل فيمن يكثر منه فعلها حتى كأن ذلك عادة منه قد ضَرَى بها . . . .  
ولكنهم لم يتفقوا على الدلالة ، فمنهم من لا يُفرق بين الهمزة واللمزة .  
ومنهم من يجعل الهمزَ للتحقير والعيب في الغيبة ، أو التعريض بالإشارة والكلام المبهم ، أما اللمز فهو التحقير والهزه صراحةً ومواجهةً .  
ومنهم من عكس الوضع ، فجعل اللمزَ في الغيبة ، والهمزَ في المواجهة والحضور<sup>(١)</sup> .

وغتكم إلى القرآن الكريم فيجلو لنا الفرق بين اللفظين في الدلالة ، حين يستعمل الهمزَ لوسوسة الشيطان (المؤمنون) والجميمة (القلم) .

وفيها الحفاء والغيبة .

أما اللمز فيستعمله مع التنازب بالألقاب (الحجرات) وفي الاعتراض على تقسيم الصدقات (التوبة) .

ولا يكون ذلك إلا مواجهةً .

وهذه التفرقة تؤكد أصالة الاستعمال اللغوي الذي فُرقت فيه العربية بين المادتين :  
فاستعملت اللمزَ في الضرب والطعن .

واستعملت الهمزَ حسيًّا في الهمزة للنقرة والمكان المنخسف ، والمهاز حديدية في مؤخر خُفِّ الذي يروض الفرس ، والمهائمُ مقارع الثخاسين ينخسون بها الدواب والرقيق .  
ولا يكون النخس في العربية إلا في مؤخر الدابة أو جنبها دون وجهها وصدرها .  
ويهذا كله نستأنس في فهم الآية ، فلا نذهب مع الشيخ محمد عبده إلى « أن الهمز

(١) انظر تفصيل هذا الخلاف ، في الرازي : ج ٨ سورة الهمزة .

يكون بالعين والشدة واليد ، حركات تشير إلى التحقير والهزاء ، واللمز يكون باللسان»<sup>(١)</sup> .

وإنما نطمئن إلى أن الهمزة هو الذى يدأب على تحقير الناس والإيغال في تجريحهم من خلف ظهورهم ، واللمزة الذى يدأب على مواجهتهم بكلمة السوء تحقيراً لهم وغضاً من شأنهم .

\* \* \*

ويصل القرآن الكريم ، الكلام عن كل همزة لمزة :  
«الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» .

قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « جَمَعَ » بتشديد الميم . والباقون بفتحها<sup>(٢)</sup> .

وأما «عَدَّدَهُ» فلا خلاف بينهم فيه ، وهم مجمعون على قراءته بالتشديد إلا ما روى عن قراءة فيها بتخفيف الدال ، بإسناد غير ثابت . قال الإمام الطبري : «وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها ، لخلافها قراءة الأمصار وخروجها عما عليه الحجة مجمعة في ذلك»<sup>(٣)</sup> .

وعلى قراءة الجمهور :

قال الإمام الطبري في تفسير الجمع :

«جمع مالا فأوعاه وحفظه وأحصى عدده ولم ينفقه في سبيل الله ولم يؤد حق الله فيه» .  
وفرق الفخر الرازي بين القراءتين ، فقال : «إن جمع بالتشديد يفيد أنه جمعه من ههنا وههنا ، وأنه لم يجمعه في يوم واحد ولا في يومين ولا في شهر ولا في شهرين . وأما جمع بالتخفيف فلا يفيد ذلك . . .

وقوله ، تعالى : وعدده ، فيه وجوه : أنه مأخوذ من العُدَّة وهي الذخيرة لحوادث الدهر ، أو هو من العُدَّ والإحصاء . أو - على القراءة بالتخفيف - جمع المال وضبط

(١) تفسير جزء عم : سورة المزة .

(٢) التيسير للداني : ٢٢٥ .

(٣) جامع البيان : ٤٨٩/٣٠ .

عدده ، أو هو من قولهم : فلان ذو عدد<sup>(١)</sup> .

والجمعُ في اللغة ضد التفرق ، مع ملحظٍ من التفاوت بين أفرادهِ : يطلق اسماً على المجموع وعلى الجماعة من الناس أو غيرهم . وجاء الناس أخلاطهم من قبائل شتى . والمجتمعُ ما اجتمع من الرمال من هنا ومن هناك . والجمعُ صنف من التمر أو النخل خرج من النوى لا يعرف اسمه .

ويأتي الجمع مصدرًا ، بمعنى كمّ الشتات المتفرق أفراداً . والإجماع اتفاق الجماعة على رأى أو عمل ، وتجمعوا اجتمعوا من هنا ومن هناك .

وفي المصطلح الديني سُميت صلاة الجماعة ، وصلاة الجمعة باجتماع الناس على اختلافهم للصلاة ، كما سُمى اليومُ الآخر يومَ الجمع ، يجمع الناس على اختلافِ أجناسهم وأممهم وطبقاتهم وعقائدهم .

ويُلاحظ في الاستعمال القرآني للمادة ، أنها تجيء أكثر ما تجيء يوم القيامة : في نحو أربعين موضعاً .

ومن الفعل الثلاثي ، جاء : جَمَعَ ، وجميع ، وجامع ، ومجموع ومجموعون ، ومَجَّمع . ولم يأت الفعل «جَمَعَ» بتضعيف الميم ، في المصدر أو أى مشتق من مشتقاته .

وجاء الفعل ثلاثياً ثمانى عشرة مرة ، لا تخطئ فيها حسّ العربية الأصيل للمادة ، في الدلالة على كمّ الشتات المتفرق المختلط .

منها ثلاث عشرة مرة ، الفعل فيها مسند إلى الله سبحانه ، لو شاء لجمع الناس على الهدى ولم يتفرقوا في الدين ، وهو تعالى قادر على أن يجمعَ عظام الإنسان المفتتة بالبلى ، وهو يجمع الناس على اختلافهم ليوم الفصل ، يوم الجمع . ذلك يومٌ مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود .

والمرات الخمس الأخرى ، في رحمة ربك «خير مما يجمعون» (آيات آل عمران ١٥٧ ، ويونس ٥٨ ، والزخرف ٣٢) على ما يفيدهِ الإطلاق من الجمع اللم . وآية (آل عمران ١٧٣) في «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً» بما

(١) التفسير الكبير : ج ٨ ، الهمة .

يفيد الجمعُ فيها من الحشدِ لشئى الجند والسلاح .  
ولا يتخلف الملاحظ في آية المحارم « وأن تجمعوا بين الأختين » وإنما يحل الجمعُ حين  
تفترق الدماءُ وتختلف الأرحام والأصلاب .

فلحظ الحشد مع الاختلاط ، هو ما يعطيه هذا الاستقراء عن قرب ، وبه نفهم  
آية الهمزة في جمع مالٍ مختلط ، والتلويح بتعديده إحصاءً وتكاثراً وأثرة ، ومعها آية  
المعارج :

« كَلَّا إِنهَا لَأَنَّىٰ • نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى • تَدْعُو مِن أدبرِ وتولى • وَجَمَعَ فَأَوْعَى ۙ ١٨٤ .  
وإذن فهي فتنة المال ووثنيته ، وما تدفع إليه من أثرة ونجبر وخيلاء ، وازدراء  
للناس وتحقيرهم والغضب من شأنهم خفيةً وعلانيةً ، من وراء ظهورهم وفي وجوههم ،  
من حيث لا يعلمون أو يعلمون .

• • •

« يَحْسَبُ أَن مَّالَهُ أَخْلَدَهُ » .

والعربية تستعمل الحسابَ والمحاسبةَ حِسَابًا في العَدِّ والإحصاءِ « ولتعلموا عدد السنين  
والحساب » .

كما تستعمله معنوياً في التقدير والتدبير ، وفي المسئولية والمؤاخذه ، والحسب الرقيب  
المحاسب .

ومنه نُقِلَ إلى المصطلح الديني في محاسبة الإنسان على عمله « يوم الحساب » وأكثر  
ما يجيء الفعل الرباعي ، بهذه الدلالة ، مستنداً إلى الله تعالى .

أما الثلاثي ، فالعربية تفرق في مضارعه بين المادى والمعنوى : فيغلب كسر السين  
للحساب بمعنى العَدِّ ، وفتحها في معنى التقدير أو التدبير .

وخصَّ الحَسْبُ بما يُعَدُّ من مفاخر الآباء .

وفي القرآن الكريم : جاء الفعل الثلاثي ثلاث عشرة مرة ، يؤذَنُ سياقها أنها بمعنى

التقدير عن ظن وتصور ، كالذى في آيات :

« قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا »

ومعها آيتا (الكهف ٩ والإنسان ١٩)

ويكثر مجيئه بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، فيعطيه السياق دلالة ضلال الوهم ، والخطأ فى التقدير ، مثل آيات :

« أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ »

(العنكبوت ٢)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(الجنات ٢١)

الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَعِيَاهُمْ وَمَعَهُمْ ؟ »

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ »

(عمد ٢٩)

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » (الزُّمُرُونَ ١١٥)

ومعها آيات : (العنكبوت ٤ ، البقرة ٢١٤ ، آل عمران ١٤٢ ، التوبة ١٦)

ويتأيد ملحظ استعماله فى غير العَدِّ الحَسَابِي ، بمجىء الفعل المضارع مفتوح السين فى آياته الإحدى والثلاثين ، فى سياق النهى أو التحذير من خطأ التقدير على الظن أو التوهم . والفعل فيها جميعاً مسند إلى المخلوقين .

ويأذن لنا هذا الاستقراء ، فى حمل « يَحْسَبُ » فى آية الهُزْمَةِ ، على التوهم الذى يغطى حقيقة التقدير ، فى حسابهِ أن ماله أخلده .

. والخلد فى العربية البقاء والدوام ، استعملته حسياً فى الخوالد وهى الجبال الرواسى الثوابت والحجارة والصخور لطول بقائها . ومنه قيل الخلد للرجل الذى أسنَّ دون أن يشيب . والخلود البقاء الدائم ، ضد الفناء .

والقرآن الكريم يستعمل الخلود بملحظ لا يتخلف ، فهو فيه دائماً فى سياق الحديث عن الآخرة ، إما خلوداً فى الجنة والنعم ودار الخلد ، أو خلوداً فى العذاب والنار . وحين يستعمله فى الدنيا ، فعلى وجه النفي والإنكار أن يكون فيها خلوداً وإنما هى دار فناء . ترى ذلك واضحاً فى مثل آيات :

« وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ إِذْ أَنْتَ مِتَّ فَهَمَّ الْخَالِدُونَ » (الأنبياء ٣٤)

« وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » (الأنبياء ٨)

«وتتخذون مصانع لعلكم تتخذون» (الشراء ١٢٩)  
ومعها آية الهمزة في «الذي جمع مالاً وعدده • يحسب أن ماله أخلده» فيضله  
الوهم ضلالاً بعيداً ، ويعميه عن حقيقة الدنيا الفانية التي يتهاك على حطامها .

• • •

«كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ» .

مع الردع والزجر بـ : كَلَّا ، يأتي هذا التنبؤ في الحطمة .  
والنبذ في العربية الطرح لما هو هين وحقير ، والنبوذ ولد الزنى ، واللقيط الملقى في  
الطريق . وقبر منبوذ بعيد منزل . والنيذة الناقة لا توكل من فرط سقمها وهزالها ،  
والأنباز الأوباش .

والانبذ التنحي والانسحاب إلى مكان مهجور ، ومنه في القرآن آيتنا مريم « إذ  
انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً » ، « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً » .  
والنبذ في الحرب أن يخرج أحد الفريقين إلى حيث انتحى الآخر وانتبذ ، ومنه آية  
الأنفال ٥٨ :

«وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء»  
وكل ما في القرآن من النبذ ، غير آيتي مريم والأنفال ، هو من الطرح والنقي ، عن  
هوان بالنبوذ على التابذ .

«لولا أن تداركه نعماً من ربه لئنذ بالعراء وهو مذموم» (القلم ٤٩)  
(والصافات ١٤٥)

«فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم»

(القصص ٤٠)

(والذاريات ٤٠)

(البقرة ١٠٠)

«أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم»

ويكل ما في لفظ النبذ من دلالة على الهوان والضياع ، يأتي الفعل في الهمزة ،  
مؤكداً باللام والنون المشددة ، وعيداً لعابِد المال الذي يحتقر الناس ويزدرهم ،  
ويدأب على تجريحهم همزاً ولزاً .

وقد فسرها الإمام «الطبرى» بالقذف .

ولمح «الفخر الرازي» ما في النبذ من إهانة .  
والإهانة أصيلة في دلالة النبذ لغةً ، والبيان القرآني يملؤها على هذا النحو الباهر  
حين يزجر بها ذلك المتفاجر المتعالي المغرور بماله يحسب أنه أخلده ، وإنما يتظره خلودٌ  
آخر مهين أليم ، منبوذاً في الحطمة .

وأصل الحطم في العربية : التهشم مع اختصاصٍ بما هو يابس كالعظام ، وقيل  
الحطُوم للأسدٍ يحطم كل شيء ويهشمه ، وللريح تقوض البناء . والحاطوم والحطمة  
السة المشومة . ورجل حَطِمٌ يلتهم كل شيء ولا يشبع . وراعٍ حُطَمَةٌ وحُطَمٌ ، كأنه  
يحطم الماشية عند سوقها ، لعنفه .

وهذا الملحظ الأصيل من التهشم مع العنف والقسوة ، لا تحطئه في الاستعمال  
القرآني للمادة ، في المواضع الستة التي جاءت فيها :

بصيغة الفعل المضارع في آية النمل ١٨ :

«قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده»

وهم لا يشعرون» .

ولنا أن تصور وطأة الحطَم من سليمان وجنوده ، للنمل مع ضآلة جرمه ووهن  
قواه .

وثلاث مرات بصيغة حُطام في آيتي (الزمر ٢١ ، والحديد ٢٠) للزرع المصفر البيس  
المهشم ، تمثيلاً لحطام الدنيا «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» ومعها آية الواقعة ٦٥ .  
ومرتان بصيغة حُطَمَة التي انفردت بها آيتا الهمة .

قالوا في تفسيرها : هي اسم من أسماء النار ، وهي الدركة الثانية من دركاتها .  
وفي الطبري عن «مقاتل» : تحطم العظام وتأكل اللحم حتى تهجم على القلوب .  
ورواها فيه حديثاً : «إن الملك ليأخذ الكافر فيكسره على صلبه كما توضع الخشبة على  
الركبة فتكسر . ثم يرمى به إلى النار»<sup>(١)</sup> .

وأخذته الزجاجي في (الكشاف) من معنى النار تحطم كل ما يلقى فيها كالرجل  
الأكول الحطمة .

(١) في تفسير الطبري ج ٨ ، وتفسير الرازي : سورة الهمة .

والقرآن يغنيننا عن تأويل بما تولى من بيان الحطمة في الآيات بعدها ، وتبدأ بالسؤال :

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ » .

والدراية أخص من المعرفة .

والخاصة البيانية لهذا الأسلوب : وما أدراك ، استعماله فيما يجاوز دراية المستول : إما لجلال الأمر وعظمه كآيتي : القدر « وما أدراك ما ليلة القدر » ، والعقبة « وما أدراك ما العقبة » .

وإما لكونه من الغيب المتعلق بالمصير في اليوم الآخر ، يتجاوز دراية البشر ويعيهم إدراكه وتمثله ، كآيات :

« سَأُضِلُّهُ سَقَرًا • وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ » (المدثر ٢٧)

« الْحَاقَّةُ • مَا الْحَاقَّةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » (الحاقة ١-٣)

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » ، « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَيْبَةُ » (القارعة ٣ ، ١٠)

« لِيَوْمِ الْفَصْلِ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ » (المرسلات ١٤)

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ • ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ » (الانفطار ١٧ ، ١٨)

« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ »

« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ »

(المطففين ٨ ، ١٨)

وفي كل آية من هذه الآيات ، يُعقَّب على السؤال الكثير « وما أدراك ؟ ببيانٍ مناطِ العُلُوِّ أو الرهبة والهول . فلنا إذن أن نلتبس مثل ذلك فيما تلا آية : « وما أدراك ما الحطمة » من بيان لها في الآيات بعدها :

• • •

« نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ • الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » .

وباستقراء الاستعمال القرآني للنار ، نلاحظ غلبة مجيئها لنار الجحيم في الآخرة ، حيث وردت فيها نحو مائة وعشرين مرة ، في مقابل خمس وعشرين مرة للنار في

الدنيا ، إما على الحقيقة في النار المعروفة الموهودة ، وإما على المجاز في مثل نار الحرب (المائدة ٦٤) .

ومع كثرة استعمال النار في القرآن لنار الجحيم ، لم تأت مضافةً إلى الله تعالى إلا في «الهمزة» فشهد ذلك جفاحه التَّكْرِ لفتنة المال وما تُعْرَى به من تكبر وبغى ، وعدوان وضلال .

والإيقاد الإشعالي ، وأصله في العربية للنار إلا أن يُستعمل مجازاً في الفتنة والحرب والضغينة وما أشبهها .

وقد جاءت مادة (وقد) في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة ، اثنتان منها على المجاز في آية النور : «كأنها كوكبٌ ذُرِّيٌّ يوقَدُ من شجرة مباركة» ٣٥ وبآية (المائدة) في اليهود : «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً» ٦٤

وخمس مرات للنار المعروفة ، إيقاداً ووقوداً واستيقاداً :

(يس ٨٠ ، الرعد ١٧ ، القصص ٣٨ ، البروج ٥ ، البقرة ١٧) .

وأربع مرات لنار الجحيم «وقودها الناسُ والحجارة» بآيات :

(البقرة ٢٤ ، وآل عمران ١٠ ، والتحريم ٦) .

«نار الله الموقدة» في آية الهمزة .

والنار لا تكون إلا موقدة ، فوصفها بالموقدة في مقام التنذير ، تأكيداً للوعيد وإرهاباً جهوليه .

وليس من الضروري أن نتاول اطلاع نار الله الموقدة على الأفئدة ، بأنها : «تعلوها وتقلبها وتشتمل عليها» كما ذهب الزمخشري وأخذه الشيخ محمد عبده ، ولا بأنها «تأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب» كما نقل الطبري .

وأولى من هذا الهجوم والأكل ، أن نلمح أسرار التعبير في هذا البيان القرآني ، فتدبر موضع الأفئدة هنا ، ولا نقول إنها جاءت مكان القلوب لمجرد ملحظ لفظي في رعاية الفاصلة ، بل لأن القلب قد يطلق في العربية على العضو العضلي المعروف من أعضاء الجسم ، أما الفؤاد فلا يطلق إلا على المعنوي من موضع الشعور والعواطف

والعقيدة والأهواء . وبهذا المعنى جاء الفؤاد في القرآن مفرداً وجمعاً ، ست عشرة مرة ، ليس فيها ما يُحمل على الجارحة ، كآيات :

«وكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» (هود ١٢٠)

«كذلك نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَرُتِّلْنَاهُ تَرْتِيلًا» (الفرقان ٣٢)

«مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» (النجم ١١)

«وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا» (القصص ١٠)

«فاجعل أَفئدةً من الناسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» (إبراهيم ٣٧)

«وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئدةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» (الأنعام ١١٣)

«مَهْطَعِينَ مَقْنَعِي رءوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفئدتُهُمْ هَوَاءٌ»

(إبراهيم ٤٣)

والزخمشرى التفت إلى أن الأفئدة مواطن الكفر والعقائد الفاسدة ، كما قال الشيخ

محمد عبده إنها موضع الوجدان والشعور .

ويبقى أن نلتفت إلى أن هذه المعنويات هي الغالبة كذلك على استعمال القرآن للفظ

قلب وقلوب . إذ يأتي اللفظ مع الاطمئنان والسكينة والرحمة والتآلف والخشوع

والوجل والفقه والظهور . كما يأتي مع الارتباب واللهو والتقلب والرعب والوجل والخوف

والاشمئزاز والقسوة والتكبر والجبروت ، والزيغ والمرض والإثم والغفلة والعمى . . .

وكلها مما لا مجال له في القلب بدلالته العضوية التي تعرفها له العربية في مألوف

الاستعمال ومنه في القرآن آية الأحزاب :

«ما جعل اللهُ لرجلي من قلبين في جوفه» .

وإذن يكون إثارة الأفئدة هنا لا نسق الفاصلة فحسب ، ولكنه كذلك لتخليص

الأفئدة من حِسِّ العضوية التي تدخل على دلالة لفظ القلوب في المألوف من لغة

العرب ، إذ نستعمل القلب بمعناه العضوى ، ولا نستعمل الفؤاد بهذا المعنى قط .

وإسناد الاطلاع إلى نار الله الموقدة ، فيه تشخيصٌ لها وتقريرٌ لفاعليتها ، على نحو

ما شحَّص القرآن الكريم هذا الهول بتقرير فاعلية النار ، في آيات أخرى ، تأتي النار

فيها :

مبصرة منفعة : « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً »

(الفرقان ١٧)

« إذا القوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور » .

ناطقة داعية : « تكادُ تَمِيزُ من الغيظِ » (الملك ٧ ، ٨)

« تدعو من أدبر وتولى » وجمع فأوعى « (المعارج ١٧)

بل أعطاهما كذلك صفة الولاية على المفتونين المغرورين والكفار الجاحدين :

« فاليوم لا يؤخذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا ، ماؤاكم النارُ هي

مولاكم وبئس المصير » (الحديد ١٥)

• • •

« إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ • فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ » (١) .

نلمح من سر البيان فيها ، أنها « عليهم » بما تفيد من الإطباق الملاصق المباشر . ولا تقوم مقامها « فوقهم » ، مثلاً ، لاحتمال أن تكون الفوقية غير ملاصقة ولا مطبقة ملايصة

والعربية استعملت الوصيد للبيت الحصين يُتخذُ للمال من حجارة في الجبال . واستوصد في الجبل : اتخذ فيه حظيرة من حجارة .

والعمد : جمع عمود ، وأصلُ استعماله فيما يقوم عليه الخياء ، وعمد الحائط دَعَمَهُ . وسبق استقراء مادته في ذات العماد من آية الفجر .

والمدُّ : الجذب للبسط ، وطرافٌ ممددٌ مشدودٌ بالأطناب . ومدَّ بصره إلى الشيء طمَحَ إليه . والمد فيضان الماء نقيض انحساره في الجزر .

فسره الزمخشري بقوله : فُتَوَصَّدَ عليهم الأبوابُ وتمدد على الأبواب العمدُ استيثاقاً في استيثاق ، ونظيره قول الشاعر :

تَحْرِنُ إلى أجيالِ مكة ناقتي      ومن دونها أبوابُ صنعاءِ موصدة

(١) قرأ « أبوبكر ، وحمة ، والكسائي » : • في عُمَدٍ • بضمين والباقون بفتحين . (تيسير الداني :

وتؤثر أن نستأنس في فهم الآية ، بالحس اللغوي الأصيل للإبصار ، بمعنى الإغلاق المحكم ، وباستعمال القرآن الكريم للمادة ، في آياتها الثلاث :

الوصيد في آية الكهف ١٨ :

«وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَيْدِ ، لو اطلعت عليهم لوئيت منهم فراراً  
وَلَمَّيْتَهُمْ رُغْباً .

ومؤصدة في ختام سورة البلد :

«والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة • عليهم نار مؤصدة» .  
والآية مسبوقة ببيان لغور المال وفتته ، يُضِلُّ الإنسان ضلالاً بعيداً :  
«يقول أهلكتُ مالاً بُدأ • أيجب أن لم يره أحد» ؟  
وفي آية البلد من إيصار النار وإطباقها المباشر ، مثل ما في ختام سورة  
الهمزة :

«عليهم نار مؤصدة • في عمدة ممدة» .

نذيراً كذلك ووعيداً بويل لكل هُمزة لُمزة • الذي جمع مالاً  
وعدده • يحسب أن ماله أخذه» .

صدق الله العظيم